

الحمد لله الذي عدَّ الخلائقَ عدداً ، وضربَ لهم آجالاً ومُدداً ، وأشهدُ ألا إله إلا الله وحدهُ لا شريكَ له لم يزلَ إلهاً واحداً صَمَداً ، ولم يتخذَ صاحبةً ولا ولداً ، وأشهدُ أن سيدنا ونبينا محمداً عبدهُ ورسولهُ أبرُّ من راحِ وغدا ، بعثه اللهُ بين يدي الساعةِ بالنور والحكمة والهدى ، صلوات الله عليه وعلى آل بيته وصحابته والتابعين ممن آمن وعمل صالحاً ثم اهتدى.

أما بعدُ عباد الله: فأوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى فهي العدةُ والذخيرةُ الباقيةُ ، وهي الجنَّةُ والعصمةُ الواقيةُ ، ومآل أربابها إلى العيشة الراضية (في جنة عاليةٍ قطوفها دانية).

عباد الله: اللسانُ ما اللسانُ ، وما أدراكم ما اللسانُ ، إنَّه كاشفُ محبَّات الصدور ومخرجُ مكنوناتها ، إنَّه الميزانُ الذي توزنُ به الرجالُ وتعرفُ أقدارُها بذلك شاهدٌ ينبئُ عن الغائبِ وزارعٌ يحرثُ المودةَ ويأمرُ بالحسن ، أو حاصدٌ يحصدُ الضغينةَ ويستنبتُ العداوات، (ومما قالت الحكماءُ قدماً ... لسان المرء من خدم الفؤاد) ومَن ضاق صدره وقلَّ عقله اتسع وطالَ لسانهُ، ومَن كان كذلك كثرَ كلامه وكثرَ سَقَطُه ومن كثرَ سَقَطُه قل ورعه، ومن قل ورعه قل حياؤه، ومن قل حياؤه مات قلبه ، ولذلك جاءت شريعةُ الإسلامِ وأخلاقه مبيِّنةً أنَّ كلامَ المرءِ عملٌ مكتوبٌ وهو عليه محاسبٌ وعنه مسؤولٌ (ما يلفظُ من قولٍ إلا لديه رقيبٌ عتيدٌ) يقول أبو هريرة رضي الله عنه (مَنْ لَمْ يَرَ أَنَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ، وَأَنَّ خُلُقَهُ مِنْ دِينِهِ هَلَكَ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ) ولَمَّا سئَلَ جابرُ بن سُمرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم كانَ من جُملة ما وصفه به قوله (كان طويل الصمت قليل الضحك) ولا عجب أن يكونَ كذلك صلى الله عليه وسلم وهو القائلُ (أكثر خطأ ابن آدم في لسانه) وبهذا يُعلمُ أنَّ الصمتَ محمداً وسنةً نبويةً وحكمةً يدعو إليها الدينُ ويهدي إليها العقلُ ، فالصمتُ أجمعٌ للفكرِ ، وأدعى إلى التوقيرِ وأبعدُ من النَّدامة ، والصمتُ عباد الله حليَّةٌ وجمالٌ لا تُباعُ ولا تُشترى فقيمتها أن يتغلبَ المرءُ على هذه القطعة اللحمية المودعة بين فكليه ، لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبَا ذَرٍّ يَوْمًا فَقَالَ : يَا أَبَا ذَرٍّ ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى خَصَلَتَيْنِ هُمَا أَخَفُّ عَلَى الظَّهِيرِ وَأَثْقَلُ فِي المِيزَانِ مِنْ غَيْرِهِمَا ؟ قَالَ : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : (عَلَيْكَ بِحُسْنِ الخُلُقِ وَطُولِ الصَّمْتِ ، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، مَا تَحَمَّلَ الخَلَائِقُ بِمِثْلِهَا).

ومن أجل ذلك جعلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم حال المؤمن الحسنة التي ينبغي أن يسعى إليها الجميعُ مترددةً بين أمرين هما قول الخير أو الصمتُ فقال (من كان يؤمن بالله واليوم الآخرة فليقل خيراً أو ليسكت) وهذا يؤكِّدُ أن إكثار الكلام مقتضٍ لفساد المزاج، وأنَّ كثير الكلام في غير حاجة لا بد أن يكون فضولياً، والفضولي لا يمكن أن يكون جاداً فيتذكر الله واليوم الآخر عند التفوه بغير المفيد وعند الخوض فيما لا يعنيه و ينفعه في دينٍ أو دنيا أو آخرة.

والصمتُ عبادُ الله إنَّما يحمَدُ إذا كانَ عَمَّا لا فائدةَ فيه وعما هو محرَّمٌ من قول الزور أو الكذب على الله ورسوله وعلى النَّاسِ ، والصمتُ مندوبٌ إليه إذا كانَ عَمَّا لا يعينك أيها المتكلمُ من أمور حياة الناس وخصائص معاشهم لأنَّ السنة ثابتةٌ بأنَّ (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) والصمتُ مهارةٌ لا تُنال بالتمني أو الادِّعاء والعُقلاء يتعلمونه كما يتعلمون حُسنَ المنطق قال أبو الدرداء رضي الله عنه - فيما روى الخرائطي في مكارم الأخلاق - (تعلموا الصمت كما تتعلمون الكلام ، فإن الصمت حكم عظيم ، وكن إلى أن تسمع أحرص منك إلى أن تتكلم ، ولا تتكلم في شيء لا يعينك ، ولا تكن مضحكا من غير عجب ، ولا مشاء إلى غير أرب يعني إلى غير حاجة) ، ولما سألَ معاذ بن جبل النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن مؤاخذه الله لنا بالكلام أجابه فقال ((وهل يُكَبُّ النَّاسُ على وجوههم - أو قال: - على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم)) وهذا الانكبابُ في النَّارِ بسبب حصاد الألسنِ يجعلُ العاقلَ يلوذُ بأسباب النَّجاةِ المتمثلة في صمته عما لا يُحمَدُ من الكلام فعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من صمت نجاً) ولما جاء الحارثُ بن هشام - رضي الله عنه - فقال لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أخبرني بأمر أعتصم به، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «املك هذا»، وأشار إلى لسانه) ، وكان لهذه الآثار النبوية أبلغ الأثر في حياة أصحابه رضوان الله تعالى عليهم ، فحملوا أنفسهم على الصمتِ والمخافة من سقطات الألسنِ وزلاًتها يقول خيرهم أبو بكر رضي الله عنه وهو يشير إلى لسانه: (هذا الذي أوردني الموارد) وحاشاهُ رضي الله عنه أن يرد مراد السوء وقد بُشِّرَ بالجنةِ مراتٍ ومراتٍ بل وفيه نزل قول الله تعالى (ولسوفَ يرضى) ، ومن بعدهش يحدُرُ عمرُ رضي الله عنه من الهذر والثرثرة فيقول (من أكثر كلامه أكثر سقطه) ويقول أبو السبطين علي رضي الله عنه (اللسان قوام البدن، فإذا استقام اللسان استقامت الجوارح، وإذا اضطرب اللسان لم تقم له جارحة).

فإلى صاحبِ كل لسانٍ لمازٍ ومنطقٍ بذِيءٍ هَمَّازٍ ، وإلى كل من يحمِلُ الشائعاتِ كأنَّه بشيرُ النصرِ أو نذيرُ الحربِ ، وإلى من يخذعُ الدهماءَ والعامةَ بالمغالطاتِ العلميَّةِ والشذوذِ الفقهي المردودِ ، وإلى من يلصقُ التُّهمَ بالبرءاءِ ، ومن يتاجرُ بكييلِ مدائحِ الزورِ مستمنحاً أيادي الموسرينَ ، بل إلى كل من غلبته هذه الجارحةُ كفوا ألسنتكم عن بسطها بقول الزور ، وتداركوا أنفسكم بالتوبة قبل أن تعتذروا وتنادوا ولات حين مناصٍ أو مندمٍ ، ودونكم قول الله تعالى (وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا).

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على أكرم خلقه والتابعين له إلى يوم الدين.

عباد الله: البشارة بالجنة من خصائص صحابة النبي صلى الله عليه وسلم وبعض تابعيهم ، ولم يبقَ منها اليوم إلا التزام بعض الطاعات التي ضمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة لمن قام بها ، ومن ذلك من تغلب على شهوة هذه الجارحة الصغيرة قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ.

والصمتُ عبادة شرعية واجبة أثناء خطبة الجمعة ، ولا إثم في أثنائها على من لم يرد السلام ولم يُشمت العاطس لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إذا قلت لصاحبك أنصت يوم الجمعة والإمام يخطب فقد لغوت) والمعنى: أن من تكلم أثناء الخطبتين فصلاته مجزئة ولكن أجر جمعته قد بطل فلا تُكتب له فضيلة الجمعة .

والصمت واجبٌ لاستماع القرآن من الإمام في الصلوات المكتوبة وهو من موجبات رحمة الله التي وسعت كل شيء لقوله تعالى (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ). وسكوت المرء عن الشهادة بالحق إذا طُلبت منه منكرٌ عظيم ، قال الله تعالى (وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آتَمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ).

والسكوت عند وقعة الأفاكين في الصالحين فعلٌ مقبوح ، والذب عنهم سنة أقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في قصة غزوة تبوك حين سأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم فقال: « مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ » قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَالتَّنْظُرُ فِي عِطْفِيهِ. فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ بئسَ مَا قُلْتَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا. فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم إقراراً لسنة الذب عن أعراض الصالحين.